امرأة سيئة السمعة

قصص قصيرة

صبيحة شبر

الكتاب: امرأة سيئة السمعة

الكاتب: صبيحة شبر

الطبعة: ٢٠١٦

الناشر :وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكو ر- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ – ٣٥٨٦٧٥٧٦ – ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www.apatop.com E-mail: news@apatop.com

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة : لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أوتخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

دار الكتب المصرية
فهرسة إثناء النشر

شبر ، صبيحة

امرأة سيئة السمعة / صبيحة شبر – الجيزة –

وكالة الصحافة العربية، ٢٠٠٨.

الترقيم الدولي: ٢-٧٠- ٥١١٢ – ٩٧٧

أ – العنوان ٢٤٣ رقم الإيداع / ٢٠٠٥/١٣١٨١

امرأة سيئة السمعة

قصص قصيرة

عن المجموعة و القاصة

تكتب القاصة صبيحة شبر في إحدى قصصها على لسان واحدة من شخصياتها القصصية: من تنتظرين أيتها البلهاء؟
عندما تسمع صوت أم كلثوم الذي يعلن بتصميم: أنا بانتظارك.
أزعم هنا أن أغلب قصص هذه المجموعة لهذه الكاتب تتمحور حول انتظار الإنسان لقدره، أو انتظار لحبيب لا يأتى، أو حلمه بقضية خلاصتها تؤدي به إلى أقصى ما يتمناه: حياة كريمة، في عالم لا يحترم هذه الكرامة إلا فيما ندر.

"جودو" الذي ننتظره في قصص "صبيحة شبر" يأتي أو لا يأتي، ولكنه في كل الأحوال إنسان مثلنا، لا يمكنه أن يقدم لنا أكثر من كلمة مواساة أوربما ينظر إلينا بعين المشاركة في الألم من دون أن ينطق حتى بتلك الكلمة، القاصة التي خبرت الحياة خيرها وشرها قدمت لنا عبر نماذجها الإنسانية في هذه المجموعة ما يؤكد أن الفنان الحقيقي مهما واجهته الصعوبات وعانى في دروب الحياة، فإنه يبقى ذلك المتشائم، نصفه متفائل ونصفه الآخر متشائم، كا تبقى البسمة الحانية يرسمها يرعه بتؤدة وانضباط

معبرة في الكثير من الأحيان عن حزن دفين لا يمكن الإفصاح عنه لئلا يضيع معناه وجماله، هل للحزن جمال؟ ألم نقل عن ابتسامة الجيوكندا، ابتسامة تعبر عن حزن دفين وفرح غامض؟

القاصة عبر قصص هذه المجموعة استطاعت أن تقدم المرأة والرجل، وهما صنوان في عذابهما وكفاحهما ووقت سعادتهما وانتصارهما، متوخية فيما كتبت الصدق الفني، كأنما تأخذ من لحم الواقع ما يعطي مائدتها القصصية مذاق مجتمعاتنا العربية، مع حلمها أن تكون تلك المائدة غنية بكل ما يبعث في نفوسنا الأسئلة، ويبني داخلنا الإنسان الحقيقي، وبحكم معرفتي بهذه القاصة النبيلة، أعرف كم عانت في حياتها من أجل أن تحافظ على كرامتها كإنسانة وكاتبة، وكم من المغريات رفضت لتبقى كلماتها حرة فيما تقول دون أن تملي عليها سلطة عاتية خطابها السياسي، فتردد كغيرها خطاب الببغاء الذي لا يعني شيئا، ولا يبقى منه الزمن شيئا سوى ظلال وخبط عشواء، وفضلت أن تهاجر من وطنها العراق في زمن الدكتاتورية في أواخر السبعينيات من القرن الماضي سائحة في أرض الله الواسعة، ملتقطة شخصياتها القصصية من هذا المهجر وذاك المهجر، كما تفعل النحلة وهي تجمع عسلها النيئ لتصوغ منه فيما بعد أنشودة تتمتعا بها، ونستمع إليها في صمت الليالي في غربة المهجر ووقره وقلقه وصعوباته، وهي تدبج قصة قصيرة جديدة تغني الحياة والأمل واليوم الجديد القادم.

فيصل عبد الحسن

إليك عني يا همومي

أم كلثوم تصدح بأغنيتها العذبة "أنا بانتظارك" وأنت قد جافاك النوم، وصممت أن تؤذي الشجرة الميتة المتفرعة داخلك، وأن تمنعي عنها الماء، ولقد تكلست وساءك وجودها، ظامئة باستمرار تطالبك بالإرواء، وقد أضناك حالها هجرتك الخضرة، وولت عنك وتركت أرضك يابسة قاحلة.

يعلو صوت المسجل وينخفض، والأنعام تتشربها أعماقك، تسكن عظامك، وتستقر في النخاع، حياتك أنغام، تقرأين على أنغام هادئة، تزاولين أعمالك المنزلية على أنغام صخبة، تقرين انتصارك على شعور طاغ بالانسحاق ما فتئ يجتاحك بالأنغام، تنامين على عزف الموسيقى وتبدأين عليها نهارك.

كل ما جريت نحوه سراب، وآن لك اليوم أن تستعيدي وضوح الرؤية، لئلا تخدعك أحلامك وتغرر بك الأمنيات.

– أنا بانتظارك، أنا بانتظارك

– من تنتظرين أيتها البلهاء؟

تحاولين أن تئدي ذلك الشعور الجهنمي الذي عشعش في روحك، وسلب منها اليقين والأمان.

تعودين بأفكارك إلى البداية، أعلن أنه متيم وقد أطربك هذا الإعلان، بأدلته شعورا بشعور، بيد أنه لم يكتف، أراد موقفا شجاعا يدل على أن حبه قد جرى في دمك وسار في شرايينك واستوطن منك العقل والقلب.

– دخني هذه السيجارة في هذه الساحة العامة ثم تعالي إلى باسمة مفتوحة الذراعين وقبليني.

وجدت الطلب شاقا وصعبا، نفدته بالتو، وأنت شبه راضية، ولم تستفسري عن العرف والأخلاق، وعن كل ما استقر في عقلك كأنه قانون. كنت تدركين أن ما أقدمت عليه خطأ، لكن الذي أثار فيك الراحة وأشعل في نفسك شموع الفرح أنك تهيئين له شعورا بالسعادة، وأنه عزيز عليك أثير على قلبك لا تملكين عنه البعاد. والهزيمة تبدأ بخطوة، أنت ارتضيت أن تقدمي على ما لا تقتنعين بصحته علموك أن الإنسان موقف، وأنت تصرفت بالضد من هذا المبدأ، خنت موقفك يا صديقي في أول خطوة.

أم كلثوم مازالت تصدح، وهي تعلن بتصميم وبملء إرادتها. (أنا بانتظارك).

– من تنتظرين أيتها البلهاء؟!

بدأت سلسلة التنازلات، كل مرة تتجادلان فيعلن أنك مخطئة، على الرغم أنك موقنة بصواب موقفك فتصمتين، يطالبك بالاعتراف بالخطأ تحاولين إرضاءه فيستمرئ منك هذا الانهزام، وهذا الشعور المستميت بالإرضاء وأن كل ماضيك خطأ، وأن أهلك وقومك خطاءون، هذا الموقف أرعبك، لم تستطيعي أن تفعلي أمرا وقد زايلتك الشجاعة.

والشجاعة مران ككل الأمور.. أم كلثوم ما فتئت تترنم بصوتها الغذب الجميل وهي تعلن وأمام الملأ. أنا بانتظارك.

– من تنتظرين أيتها البلهاء؟!

تكثر مجادلاتكما.. في كل مرة أنت المخطئة وتتنازلين. يصرخ بأن الخطأ يسكنك، وأنه لا مناص من الهرولة خلفه.

– ولماذا أكون أنا أبا موسى الاشعري على الدوام؟

يغضبه قولك فيثور أنت تصمتين وتتنازلين يصرخ بأن تحاولين كسب رضاه وهو ضنين بهذا الإرضاء.

أنت تعملين وريثما تصلين إلى المنزل تهرعين إلى المطبخ هو يمسك الجريدة ويعلن أنك مذنبة، يفقد عمله فيطالبك أن تجدي أنت عملا آخر فتهرعين إلى أبيك عله يساعدك، وأبوك كالعهد به يرحب أن يكون الملجأ والمنقد فيسارع بإنقاذ المسكن المتصدع ويستدين.

يأخذ هو المبلغ ويبتعد، يتركك وحيدة تشعرين أنه يعاقبك فتسألين وما هو ذنبك لا تتوصلين إلى جواب تتقلبين على فراش من الجمر، وعواطفك تقهرك أنت تحبينه وهذا خطأك الوحيد!

صوت أم كلثوم مازال يعلن: "أنا بانتظارك".

– لن أنتظر بعد اليوم!

تقررين أنك سوف تئدين حبك في قلبك وأن تنتصري لمبادئك ومثلك.

– سأبعده عن قلب. سأقتلع هذه الشجرة من داخلي!

جفاك النوم، والحنين يعاودك فأنت بشر، لكنك تقررين وأد ذلك الحنين، والحرب المسعورة مازالت فوق طاقتك واحتمالك.

يضعف فيك البصر، والسمع يمرض جهاز الدوران وجهاز الهضم فلا تعودين قادرة على التلذذ بالطعام، تسقطين مريضة منهكة، لكن الأمل يعاودك بأنك يمكن أن تبدأي من جديد.

المهجرة

البرد يختفي، يسيطر على بدني يكتم أنفاسي، وأنا أرتجف أرتعد ومفاصلي تؤلمني عظامي تئن وتتوجع، قواي تنكسر، وتتبدد الثلج يحطمني ينخرني يعصرني ويسطو على طاقتى، قدرتي على الاحتمال تهرب مني، جيران شباب يضحكون للحياة ويتبادلون معها الأنخاب.

امرأة في سني تبتسم لي بمودة وتفهم تحيا حياتها حتى الثمالة، تتمتع بشبابها ترتدي قميصا خفيفا مفتوح الصدر تنظر إلي بإشفاق، وأنا أرتعش أرتجف أموت أتضاءل، تلحفت بما قدموه لي من أغطية معاطف وارتديت ما أملكه من فساتين صوفية، ووضعت فوقها ما أعارته جارتي من ملابس وأنا أرتجف، أتبدد ينظرون إلي ويبتسمون لعلهم يجدونني مخلوقة غريبة أسرفت في معانتها، وهم يعينونني على متاعبي ويخففون من شدة وطأتها على نفسي ملأت الكيس بالماء المغلي، ووضعته على بطني وأنا أرتجف، حاولت أن أجلب شعورا بالدفء ولكن عبثا القشعريرة مازالت تمسك بتلابيبي، هم يتكلمون وأنا صماء لا أفهم مما يقولنه شيئا، وصلت إليهم قبل شهور أردد كلماتي على مسامعهم يبدو أنهم يفهمون ما أعنيه لكنهم لا يتستطيعون أن يردوا بلغتى.

– البرد.. هاتوا المدفأة إنني أموت، أتجمد، الثلج يخنقنى.

يراكمون الأغطية على سريري، أياد عديدة تقترب ثم تبتعد، تمطرني أغطية ومعاطف، ولكن دون جدوى، البرد أقوى من كل المحاولات الجارية لإخماده.

عائلتي كانت سعيدة ومتماسكة لم يرد أحد الفراق أرغموا على الذهاب إلي أماكن مختلفة زوجي جاؤوا وأخذوه إلى منطقة نائية قالوا إنه سيعود بعد ساعة، وأنه مطالب أن يجيب عن بعض الأسئلة، وعدني أنه عائدد حتما وطالت غيبته.

– البرد رحماكم البر يقتلني أقذفوا شيئا أنجدوني.

ولدي الأكبر خرج واعدا إياي بالودة بعد ساعة والساعة تكبر وتتضخم وتتضاعف وتتناسل، والرعب يجتاحني، ويمتلك قدرتي يشل إرادتي.

– البرد النجد سأموت.

الأغطية تتراكم الأيدي تتحرك أذرع عديدة تسرع وتهرع لمساعدتي، أناس غرباء عني لا أعرفهم يغيثونني ابنتي الوحيدة ذهبت لزيارة صديقتها طلبت منها ألا تخرج، ثم تراجعت عن طلبي فهل أقيد ابنتى؟ طال انتظاري لأوبتها كلهم رحلوا وما كانوا يريدون الرحيل.

– البرد أولادي زوجي هاتوا الغطاء أنجدونى.

الأذرع تتحرك تهرول تتسارع تتراكم الأغطية، وأنا وحيدة أسرتي لا أعرف عنها شيئا.

– البرد أريد أخوتي أولادي جيراني أصدقائي هاتوا الدفء أنجدوني.

سارعت إلى المغادرة قبل أن يئدوني، يد كبيرة تسحب الأغطية تمسك بيدي تتلمس جبيني، وجوه كثيرة تحيط بي ترقب حركاتي بمودة.

– لا شيء بك سيدتي، لا علة جسمية أنت في صحة ممتازة.

– البرد أريد الدفء أرجوكم أولادي أصدقائي وطني أصدقائي كانوا كثيرين فقدوا خلال أيام، ذهبوا ولم يعودوا وبقيت وحيدة عيون ملؤها الشفقة تنظر إلي بتفهم.

– البرد أغيثوني لا أريد أن أموت أحب الحياة.

جيراني يهرعون إلى نجدتي أيديهم تسارع إلى انتشالي من بؤسي يفقد البرد شيئا فشيئا جليدته، أرى أنني يمكن أن أقاومه أرمي بالأغطية واحدا بعد الآخر، وأقر البداية من جديد ووأد الهزيمة في أعماقي.

سأعود بعد ساعة

حلق زوجي ذقنه، ارتدى ملابسه الجميلة وتعطر، وخرج قائلا إنه سيعود بعد ساعة، انقبض صدري، أحسست أن الغرفة تصغر شيئا فشيئا حتى تضيق عليّ، لم أطلب مرافقته في الخروج إذ إنني أعلم مسبقا أنه سيرفض قائلا:

- وهل تعدي علي أنفاسي؟

رتبت الغرفة، جمعت الصحون، غسلتها، فتحت التلفاز، رأيت برنامجا سخيفا، أغمتني مشاهدته، ثم أغلقت الجهاز، أدرت مفتاح المذياع على مقطوعة موسيقية تعجبني، رقصت على أنغامها، عملت فنجان قهوة، وبعد أن شربته وقرأت الفنجان لنفسي عرفت الأمور التي أتوقعها في حياتي، نظرت في ساعتي فوجدت أن زوجي قد غاب أكثر من أربع ساعات، سيطر على قلق شديد، وخفت أن زوجي ذهب في زيارة صديقه المريض، وكان عند ذلك الصديق رفاق آخرون، وتحدث الجميع في بعض أمور الساعة وأوضاع الوطن، واختلف معهم زوجي في وجهات النظر كعادته في كل اختلاف أخذ يضرب رأسه بالحائط، نظرت إلى زوجي، وإذا بالدماء تسيل من رأسه وجبهته، وأصدقاؤه غارقون في مناقشتهم، فلا أحد ينجده أو يأخذه إلى الطوارئ، فكرت أن أذهب إل بيت

ذلك الصديق، لكني لا أعرف أين يقع، كل ما أعلمه أنه يسكن في شقة تقع خلف مقهى الباليمة الواقعة في شارع محمد الخامس الكائن في الرباط، زاد قلقي وتضاعف، توقعت أن يتصل بي أحدهم ويخبرني عن الحدث الأليم، جلست قرب الهاتف، لكن خوفي المشتد لم يدعني أستطيع الجلوس، فوقفت قرب الجهاز أنظر إليه بجزع متوقعة أن يرأف لحالتي وينقل إلي النبأ الحزين، طال انتظارى، ذهبت إل الشرفة، عل أحدهم يأتي بسيارته ويراني، كنت أطل من الشرفة ناظرة إلى جميع الجهات، آملة أن تأتي السيارة، وفيها أحد الأصدقاء لإخبارى، ولكن دون جدوى، كان أحد المتطفلين يطيل النظر إلي، فالتفت إليه فغمز فلجأت إلى داخل الغرفة، فكرت في الخروج من الشقة والوقوف أمام العمارة، فطال وقوفي دون طائل، خشيت أن يكون الهاتف قد رن أخيرا، وإن وجودي بالخارج قد يحرمني من سماع النداء، فصعدت مرة أخرى.

ألحت على الفكرة من جديد، استولى علي باعث قوي أن أقف في الشرفة لعل أحدا يخبرني بما حدث، الرجل المتطفل ما زالي في مكانه ينظر إلي بلا حياء، اضطررت إلى الدخول، توسلت إلى الهاتف أن يرن ولكن عبثا يبدو أنه غادر الحياة فلم يعد يشعر بمعاناتي، فكرت من جديد وعاودتني الفكرة السابقة بأن أذهب إلي الصديق، ولكن كيف؟ راودتني فكرة جديدة وجدتها جديرة بالتطبيق، وهي أن أذهب إلى مقهي الباليمة وأعرج على الشارع الواقع خلفها، وهناك أعثر على المنزل.

خرجت من الشقة وأنا أسرع الخطا، لحقني الرجل، ضحكت إحدى العجائز وكانت تسير بالقرب مني، خفت أن يعود زوجي مهشم الرأس معصوب الجبين خلال خروجي ويجد الباب مقفلا، عدت أدراجي، عاد الرجل ظنا أن عودتي من أجله، أسرعت صاعدة إلى شقتي، وضعت المفتاح في القفل، وأنا لا أقوى على الوقوف، أقفلت الباب على نفسي وقلقي قد بلغ أوجه، بقيت أنتقل بيت الشرفة والهاتف حتى عطف علي أخيرا ورأف بحالي.

– ألو، سهام أنا في منزل، أحمد بصحبة أصدقائي سأتناول كأسا آخر وأعود.

امرأة سيئة السمعة

الآن وبعد جهد جهيد استطعت أن أراك يا أمى، وأتحدث إليك عما يشغل قلبي، ويهم فؤادي، وأنت لابد أن تسمعيني، أليس كذلك يا عزيزتي؟ شعرت ببعض الراحة بعد أن تعذبت كثيرا، سنين طوال مرت وأنا عاجز عن الدفاعن صغر سني وشدة ضعفي وهزلي وحاجتي لهم، ويتمي وغياب الأحباب عني.

كل هذه الأمور مجتمعة جعلت الآلام تتفاقم على صدري وشعور بالمرارة والخيبة ما فتئ يتضخم ويتزايد وأنا الفتى الصغير الذي أنهكته السنون وهو بعد لم يشب ولم يبلغ سن الرجال.

صديقاتك وأصدقاؤك المتبقون على قيد الحياة يبلغونك السلام، فلست الوحيدة التي لاقت هذا المصير، مائة امرأة وفتاة وفي لحظة واحدة، في بلادنا المنهكة التي أتعبتها الحروب، وقفن مثل وقفتك الشجاعة ولم يخن الأمانة.

– صه، اصمت قليلا، اسمع أصواتا من بعيد، أنا مثلك فقدت أمي ولم أرها منذ دهر سحيق.

– ابتعد الصوت، إنهم لا يعرفون طريقنا، فهو مكان مهجور في سرداب سن عميق "رحل أصحابه ولم يعرف الآخرون أنه موجود، إذ لم يستدلوا على بابه، أمور

جسام ومصاعب عظام، مررنا بها يا أمي بعد أن غادرتنا، بحار من الدم فاضت في ربوعنا، وقومنا صابرون، مرفعوا القامة واثقون.

– صوت أقدام تقترب، سألتزم الصمت ريثا يبتعدون، أرجو ألا يصيبك القلق، إنها تولى بعيدا.. كنت دائما أحلم أنني سوف أتمكن من تحقيق أمنيتي التي لازمتني طوال طفولتي وصباي وأنا أجدهم يحاولون النيل مني، ومن طعن إنسان عزيز على نفسى، أثير على قلبى، أحببته أكثر من حبي لنفسي ووجدته دائما مسارعا إلى إدخال السرور إلى قلب الطيبين، أسمعني الكريه ابن عمي ذلك الأحمق البوال بعض الكلمات عنك وكنت أتوقع منه ذلك فكثيرا ما أسمعوني أيام عجزى، دافعت عني لمرة واحدة فحسب، فلم يذيقوني طعاما ثلاثة أيام كاملة، ووضعوا بدله قطعا من الحصى والحجارة في صحني، فإذا ما أحسست بالجوع يكاد يقتلني أخبروني أن طعامي قرب الفراش الذي أستلقي عليه عادة في المطبخ منذ أن وضعت الأيادي اللئيمة حدا لفرحي وسروري، وأنا أحظي بالقب منك، ووأدت تلك الفرحة التي يشعر بها طفل صغير في أحضان أمه.

– أصوات تقترب، سأكون حذرا وأصمت قليلا، الملاعين إنهم يبتعدون، صديقتك زينب رأتني فالطريق وهمست لي أنه يمكنني أن أغادر ذلك الجحيم، فما كان مني إلا أن أنتهز الكلمات الغبية التي تفوه بها ابن عمي البليد، فصفعته على خده وأنا أشعر بثقة كبيرة وذلك الإثم لن يعاودني ولن يتمكن أحد من النيل من أمي، سوف تملأني الثقة وتتبدد مشاعر الإخفاق والضعف والجبن، لم أشأ أن أرد على إساءة ابن عمي لئلا أغضب أبي، فأنت تعلمين كم هو عزيز علّي، أنفذ ما

يرتضيه، كنت أحيا في بيت عمي فأطعمني من فضلات أبنائه وكساني من الملابس التي لم يعودوا راغبين بها، أرغمت على مساعدة زوجته وتنظيف المطبخ وغسل الأواني، أراك عابسة وأنت لا تحبذين الإساءة إللا ذوي القربى، كنت وحيدا، أخوالي غادر بعضهم والبعض الآخر أعدمته السلطات بعد ذهابك، هل تسمعين؟ أصوات جلبة تقترب، لم يخنك أحد من الأصدقاء كما توقعت. فعندما سافر أبي منح مفتاحه الخاص بمنزلنا لعمي الذي وضع آلة تصوير في غرفة الاستقبال، فكيف أمكنهم أن يعرفو المجتمعين من أصدقائك ويلقوا القبض عليهم؟ حدثتني بهذا الأمر صديقتك أم كمال، وعدك عمي بأن يساعدك بالحصول على جواز السفر، لكنه لم يفعل وانقطع عن زيارتنا شهرين كاملين، كان يأتي أثناء وجودك في العمل إلى منزلنا ويفتش في أوراقك ويقرأ مذكراتك، أتذكرين عندما اتهمك بالعناد وأنك تتبعين أناسا أغبياء، فأجبته بأنك وفية لهذه الأرض المعطاء.

في تلك الظهيرة يا أمي جاء بيتنا عدد غفير من الرجال، كنت عائدا لتوي من المدرسة، وربطوني أولا، كمموا فاهي قبل أن تعودي من العمل، كيف حصلوا على المفتاح؟ وحين عدت وجدت المنزل قد احتل فأخذت تبحثين عني، أمسكوا بك قيدوك ربطوك بالحبال وعلقوك على بابنا وأنا أنظر مرعوبا، لم أكن أعرف لو لم يربطوا عيني، أدركت الجواب أخيرا لكي يزيدو المشهد رعبا، جاء عمي أخيرا بعد أن غادرتنا.

– ولدي يا ابن شقيقي.

أردت أن أخبره أنه هو السبب، لكنه بادرني قائلا:

– كيف تجرؤ أمك على استقبال غرباء في منزلك وأبوك غائب؟

– لم أك أدري وأنا صغير كيف أرد، لكن الذي أعرفه جيدا أنك كنت تستقبلين أصدقاءك بوجودي وتتحدثون عن الوطن والشعب والحرية.

– سأصمت قليلا، لست متعبا، عادت إلي قوتي وفقهت أمورا كنت أجهل كنهها، في المدرسة لم يحدثني التلاميذ والمدرسون إلا باحترام فقد كانوا يقدرون أمي ويثقون بها، وتلك الكذبة المفتعلة التي تحاك خيوطها بالظلام لم تعد تنطلي على أحد، فلم يعد الإنسان المواطن يصدق أن نساءنا المناضلات سيئات السمعة يستحقن القتل.

بقيت يا أمي معلقة وقد كتب على الجدار قربك هذه الجملة نهاية سيئات السلوك، وفي طريق المدرسة في صباح يوم شديد البرد همست في أذني امرأة أكبر منك قليلا بأنك أشرف من الشرف، وأنت خالدة في عقولنا وأفكارنا، وحين عدت إلى المنزل لم أجد الجثمان معلقا فحمدت الله، وعرفت أن الناس الطيبين في بلدي والذين ضحت لأجلهم والدتي قد وضعوا حدا لعذاباتي فدفنوا أمي.

أراك تبتسمين يا أمي كما عهدتك ولكن لأسمعك القصة كاملة بعد عشر سنين، تذكر الأب أن له ابنا، طلب من عمي أن يسلم على وأنه بانتظار أن أتخرج لكي أعينه على ضائقته المالية فهو متعب ويعاني من آلام الغربة، أعانتني الأسرة التي لجأت إليها في إيجاد عمل لى، اتصلت بالوالد.

– لماذا لم تدافع عن أمي؟

– وهل عمك يكذب؟

– ولماذا تكون أمي الكاذبة؟

– انتبه يا ولدي أنت الآن رجل، أمك كانت ذكية جميلة مناضلة وغنية.

– هل تدفعك هذه الصفات إلى التخلي عنها؟

– وهل أغضب أخي؟ وهو من رباك وعلمك وأسكنك بيته، وما يجديني هذا الموقف أخيرا وأمك ماتت وارتاحت.

– دافع عن ذكراها على الأقل.

– أنا إنسان واقعي أؤمن بأن قدرات كل منا محدودة، هب أنني دافعت عن ذكرى أمك الآن، سوف أخسر بهذا الموقف الكثير من الأصدقاء، كما أن السلطات التي أهادنها ستحاربني وأتمنى أن أعود إلى بلدي، وأنا شخص غير مشكوك في ولائي.

– أدركت بعد هذه المكالمة يا أمي أني يتيم الأب.

– هيا يا صديقي، تحدثنا مع أمهاتنا وسنخرج بحذر لئلا يرانا أحد فيهدون قبور أحبابنا كما فعلوا مع أناس عديدين.

الوشاية

أسرعت إلى سيارتها جلست خلف المقود، راحت تنهب الأرض نهبا، أيقظها من أفكارها أمر تلوح به يد شرطي المرور.

– سيدتي، خففي من السرعة، تسيرين فوق المائة في شارع مزدحم، ولكن هاتي أولا أوراقك.

أعادها الصوت إلى الواقع، سنين طويلة عاشتها، وهي مخدوعة، تجهل الحقيقة، أمور كثيرة تجري في الخفاء، ولكن كيف استطاع أن يخفي الأمر كل هذه الفترة، وكيف يمكن أن تنطلي عليها الحيلة؟ وهي الذكية حسب ما تظن نفسها، كيف يمكن ألا تفيق من المهزلة إلا بواسطة الهاتف؟

– السيدة هدى؟ ماذا؟ هل تسألين من أكون؟ أنت لا تعرفينني ولم تسمعي بي قبل اليوم، لكنني أعرفك جيدا، أنت موظفة حكومية، راتبك جيد تحبين عملك، يقدرك زملاؤك وأصدقاؤك كثيرا، تملكين منزلا جميلا، لك ثلاثة أولاد وبنت واحدة.

– هلا أخبرتني من تكونين؟

شوارع كثيرة قطعتها، وهي نهب لمشاعر متباينة عنيفة، تتقاذفها أفكار متطاربة، ودت لو تهدئ أعصابها، وأن تسكن من ثورتها، ولكن إرادتها القوية خانتها هذه المرة.

– زوجك رجل أعمال ناجح، له معارف كثير، وأصدقاء وصديقات.

– نعم؟

– هاهاهاها.

الشوارع جميلة، نظيفة، ذات أشجار باسقة، رائعة الجمال، أثارت في نفسها الإعجاب في الأيام الماضية، لكنها اليوم تكاد لا ترى شيئا.

– أنت تثقين بزوجك تستقبلين صديقاته في منزلك، ترحبين بقدومهن.

– وما الضير في هذا؟

– لا أحب إخبارك والإجابة عن تساؤلاتك، أنا أهوي الحالة التي أنت فيها، فهيا تناسبني، وتخلق في نفسي الفرح، أردت فقط أن أعلمك بأنك لست بالشكل الذي تظنين.

– وما أدراك ماذا أظن؟

– الشوارع خالية، لم تجد أناسا، ترى تماثيل من مختلف الأحجام، يرتدون ملابس ذات ألوان لا تعلم حقيقتها، بعض الناس يقف منفردا، وبعضهم ضمن مجموعة من التماثيل.

– أنت غافلة يا امراة، سأصف لك بيتك، إنه كبير، فيه أربع غرف ومطبخان وحمام ومكتب كبيرة، هل تحبين أن أصف لك غرفة نومك يا سيدتي؟

– لابد أنك دخلتي منزلي، وقد استقبلتك فيه، فمن تكونين؟ لم أتذكر صوتك.

– لم أزرك ولم تستقبليني أنت، لكني أعرف الكثير عنك. في غرفة نومك مكتب صغير، وسرير مزدوج، أمام السرير صورة مرسومة لامرأ ميلة، تبتسم بسخرية

لاذعة، فهل تعرفين من تكون تلك المرأة؟ إنها أنا أيتها المصون، زوجك يحيا معي، يراني كل لية، كل يوم، هل تفهمين ما أعني أيتها المرأة؟ أنت تثيرين شفقتي وأنا أهزأ بك، أنت وسيلة للعيش والإنجاب لا غير.

– أنت كاذبة، لا شك في هذا.

– هاها ها ها، تقولين كاذبة، إذن ابحثي عن الحقيقة أيتها الغبية.

جف حلقها، تيبس لسانها، نظرت في المرأة فلها حالة، توقفت قليلا، شربت جرعة من الماء وعاودت سيرها.

– ابحثي عن الحقيقة، وأنا سأستمر على ابتسامتي، وأداوم على سخريتي، أريني ماستفعلين؟

دخلت فندقا صغيرا، طلبت غرفة، أرشدت إلى مكان ما طلبته، وقفت أمام النافذة، فكرت قليلا، طلبت فنجانا من القهوة، أخرت دفترها، كتبت فيه بعض الملاحظات، أمعنت النظر بصورة طفل يبتسم، قررت شيئا وقفلت راجعة إلى منزلها.

المطاردة

لمحتها من بعيد، تكاد تهرول لا يبدو أنها رأتني أو علمت بوجودي قريبا منها، لم أوفق في إخفاء دهشتي عن رفيقي الذي سارع إلى تأكيد شكي.

– إنها هي، هل أنتما متخاصمان؟

– لكنها لم ترِن.

– ما الجهة التي تقصدها؟ وهل تزور إحدى صديقاتها؟ أم لكما معارف في هذه المنطقة؟

أقوم مسرعا؛ يرافقني صديقي لا أدري ما وجهتها وإلى أين هي ذاهبة، ولماذا لم تخبرني، لقد تجاهلت وجودي؛ كانت تحرص في الأيام الماضية على تحيتي وتحية جلسائي، فهل غضبت مني؟ ولم عساها تغضب؟

رفيقي لا يخفى حرصه على اللحاق بها، يود أن يعرف أين تذهب، وأنا ماذا بمقدوري أن أقول؟ هل أواصل حياتي مخدوعا متظاهرا بأنني لا أعلم شيئا؟

لا يمكنني هذا، فلن أبقى دميتها أصدق ما تدعيه، دللتها كثيرا وأفسدها تدليلي، هي تسخر مني في سرها، يبدو أنني المخدوع وآخر من يعلم، هذا صاحبي من روعى، قال إنه يراها كل يوم في مثل هذا الوقت وقد يكون لها عمل وأنا لا

أعلم، تسير أمامي وتعطيني ظهرها، تبتعد عن مقهاي، لن أدعها تنجح في الإفلات مني، ولن أبقى موضع هزء وسخرية بعد اليوم، سوف أضع حدا لسذاجتي وطيبة قلبي مما جعلها تتلاعب بي، تحدثني كثيرا عن الثقة المتبادلة والإخلاص والاحترام المشترك، وكل هذه الأكاذيب، إنها كاذبة ومنافقة، وقد أيقنت من هذه الحقيقة.

لم تلتفت، ولم تدر رأسها إلى الخلف وهذا ما أبتغيه، لا أود أن تراني الآن قد تدعي أنها في زيارة لإحدى معارفها، سوف أصبر حتى النهاية، حتى الوقت الذي أتمكن فيه من إمساكها بالجرم المشهود.

لست مثلها، الشريعة والعرف والتقاليد تمنحني حقوقا عليها، عليها طاعتي والإقرار بقوتي وقيادتي.

– لا تقترب منها، اترك مسافة مناسبة بينكما، لكيلا تفشل مساعينا.

مرة واحدة قابلتني وأنا أسير مع إحدى صديقاتي، فأقامت الدنيا ولم تقعدها، وحين سكتت هي لم يرد أصدقائي أن يصمتوا، أطالوا الحديث عن حقوق الزوجات وعن احترامهن، وأنا لم أقترف إثما، سرت مع واحدة لا غير، تقول إنها تعمل أكثر مني، وهل هي الوحيدة في هذا المضمار؟ كل النساء يعملن، فهل تمن علي بعملها؟

– صه؛ لا تقترب، يمكن أن تلمحك.

تريدني أن أساعدها في أعمال المنزل، وقد حاولت إرضاءها، فضحك على بعض معارفي، فلماذا أقوم بأعمال تتنافى مع كرامتي؟ أتعبتني بدعوى المساواة، وهي ضعيفة تبكي لأتفه الأمور، تقول إن كثرة العمل ترهقها، فماذا بوسعي أن أفعل؟

– أوشكنا على الوصول، صبرا حتى تضع حدا لادعاءات زوجتك الفاضلة.

مللت منها، فماذا تظن نفسها؟ إنها مجرد مدعية، تغضب دائما ثم تلوذ بالصمتن فلتفعل ما تشاءن سأكون اليوم حرا أسهر كما أريد ومع من أرغب.

– قريبا نصل، ستمسك زوجتك بالجرم، ولن تستطيع الكذب.

– المكان بعيد عن منزلنا، وصديقاتها أعرف منازلهن، فمن ذا الذي تأتي لزيارته هنا؟ لابد أنها تخونني، هي ليست أفضل مني، أخبرني صديقي عن زياتها المريبة، وأنا شاكر له، من حسن حظي أنها لا تحب الالتفات، تسير وعيناها تنظران أمامها، حسنا إنها تصل منزلا من هذا؟ لا أدري لمن يكون؟ ترن الجرس، سوف أنتظر، حتى أرى الرجل وأفعل ما يتطلبه الموقف، وإسدل الستار على هذه المسرحية الهذلية، ورجل أسود أيتها اللعينة، تفضلين علّي رجلا أسود، يتعانقان يقبل أحدهما الآخر، أيتها المجرمة أضع يدي على كتفها.

– أيتها الخائنة ماذا تفعلين هنا؟

تلتفت المرأة مندهشة. وجه لمخلوقة أخرى لم أرها من قبل يقابلني في غضب.

البناية

– قفي مكانك!!

أرعبها الصوت، انتفظت خائفة، أمامها شخصان يثيران الرعب، يحدقان بها نظراتهما حادة متواصلة وعدائية، إنهما مسلحان، وقد دفعهما وجودهما في هذه البقعة النائية إلى الريبة والشك.

نجحت بعد محاولات متكررة أن تصل إل هنا، رفض العديدون أن ينقلوها بسياراتهم إلى البناية المطلوبة، ما إن يسمع أحدهم باسم المرأة المبتغاة وهي تنطق به برهبة حتى يعتذر مدعيا أنه لا يعرف أين يمكن أن تعمل، ولم تصدق دعواهم، فالجميع يعرف أين يقع المكان، حتى هي تعلم في أي بعقة من العاصمة يكون مطلبها، عليها أن تذهب إلى هناك مع أنها لا ترغب بالذهاب.

– ما لذي تفعلينه هنا؟

– ألا تعرفين أن المرور من هنا ممنوع؟

بعد محاولات مضنية وقد كاد اليأس أن يتطرق إلى نفسها نجحت في العثور على أحدهم.

– أليست المديرة هي السيدة؟

– نعم هي نفسها.

إنها واثقة أن الجميع يعرفون من تكون تلك السيدة لكنهم يدعون الجهل، هم معذرون حتما ولديهم أسباب قوية وقاهر ترغمهم على ادعاء الجهل، وغموض مصير العديد من المعارف والأصدقاء سبب قوي يجعلهم ينكرون.

– أين كنت؟ وإلى أين تزمعين الذهاب؟

أدت عملها بإتقان، استطاعت أن تقنع نفسها بذلك، وشاركتها بهذا العمل الكثيرات ممن يمتهن المهنة نفسها.

– أجيبي أين كنت؟

انتهت من المهمة وغادرت.

البناية ضخمة لم تر مثيلا لها من قبل، على بابها يقف رجال مدججون بالسلاح ودت لو تجد سيارة الأجرة بانتظارها، ولكن حدث ما كانت تخشاه، فالبقعة خالية وكأن الجميع جرى يحلم بالهروب تبخرت المخلوقات الحية إلا من نخلة وحيدة تندب حظها عليها أن تغادر، وأن تقتدي بالأخريات وبأقصى سرعة وإلا شكل وجودها ذلك خطأ لا تدري كنه عواقبه.

– ما الذي يثبت لنا أنك لا تكذبين؟ هل لديك ما يؤكد أقوالك؟

كيف تستطيع أن تثبت، حضرت ومعها الكثيرات لكنها لا تعرف أيا منهن فما الوسيلة التي يمكن أن تنقذها من هذا المطب؟

– اذكري اسما واحدا فنصدق قولك.

اضطرت إلى السير، الطريق طويلة قدماها تؤلمانها، بطنها الكبير المنتفخ تشعر أنه سيقذف ما بداخله إلى الخارج وهي ما برحت تغذ السير إلي مرادها البعيد.

– حافظي على صحتك، سيدتى، الجنين في خطر، وأنت مهددة بالإسقاط.

– لا أحد يجرؤ على المرور من هنا فماذا تدعين؟ اذكري شيئا يمكن أن ينطلي عليا أيتها المرأة.

الألم يتضخم. يتزايد، القدمان يتشنجان، البطن ينتفخ، يتمدد الجسد، يتفجر، الجنين يصرخ ويصرخ.

– أريد لطفي أن يحيا، جنيني لن يموت.

– خذي حذرك سيدتي، حافظي على صحتك ابتعدي عن الإرهاق.

– لن ندعك تذهبين حتى تذكر الحقيقة هيا يا امرأة ما لذي تفعلينه هنا؟

القدمان متورمتان، والشمس قد أذنت بالمغيب والظلام يوشك أن يخيم ويسود وهي ما تزال بعيدة.

تغد السير وتواصل وساقاها ينهبان الأرض.

– لا تسير كثيرا ولا تقفي لوقت طويل، وإذ تشعرين بوصول التعب فسارعي إلي الفراش.

شفتها تيبس، قدماها يتضخمان تتورمان لا يطاوعنها والطريق مازال طويلا.

– أين الناس؟ هل تجدين مخلوقا؟ فلماذا سلكت هذا الطريق؟ الطريق وعر قاس.. منهك.

– حاولي الحصول على إجازة طبية وضعك الصحي لا يعينك على العمل.

– قولي شيئا قد نصدقك حسنا أين كنت؟ وماذا تريدين؟

أعضاؤها تصرخ تلهث تنفجر والألم يشتد، يتفاقم، يتضخم.

وهي تنشد الراحة وتود لو تنتهي من هذه المسألة.

– أعيدي علينا الحكاية مرة أخرى ومنذ البداية أترين؟ أنت امرأة مسكينة وحامل ولن تشكلي خطرا علينا.

الانتظار

القاعة ملأى بالمنتظرين، رجال ونساء أثقلتهم الهموم، ودوا لو يجدون عنها براحا، أوقاتي مثقلة، تتراكم على الأعباء، لا أجد متنفسا لأخلو إلى نفسي أو أؤدي عملا أثيرا أحبه، فكل ما أقوم به مفروض.

الحاضرون يحدث بعضهم بعضا، يسرد عليه همومه ويقص عليه متاعبه، وأنا لا أجد من ينجدني من وهدنى، أمنياتي قليلة. أتمنى لو أحظى بلحظات حرة لا يملكها الآخرون، أتمدد، أجلس مسترخية، أفكر بشيء لا محدود، أسير بلا هدف، لا أهرول وأهرب من أمور لا أعرف كنهها، تدفعني متاعبي إلى مضاعفة سرعتى، وتدفع بي قوة غامضة فلا أقوى معها على التقاط أنفاسى.

عملي جميل مع كونه مرهقا، يسخرون مني حين أخبرهم بأني عاشقة لمهنتى، تفكيري باحتمال فقدانها يثير في رعبا أخطبوطيا، بدأت أفقد العديد من الأصدقاء المقربين، لا يريدون تصديقي وحالتي ميئوس من برائها.

تنادي السكرتيرة على اسم رجل من الحاضرين، يقف المعني بالنداء ويدخل.. هذا الطبيب مشهود له بالكفاءة، لكني لم ألحظ تحسنا في وضعي النفسي، وقد عدته مرات عديدات، لم يعد الأمر يطاق، ماذا ألم بى؟ لم يعد

نسياني مما يستهان به، أضحى لا يغتفر، أدخلني في مأزق لم أستطع لها تبريرا.. إحدى الحاضرات وجهها مألوف، هذه الأناقة وذلك الجمال رأيتهما، أنا واثقة من هذه الحقيقة، تحدثت مع صاحبة هذا الوجه، ولكن أين؟ ومتى كان ذلك اللقاء؟ وما نوع الأحاديث التي أجريناها؟ وأين تم ذلك؟ هل تشاركني عملى؟ أم تجاورني في سكني؟ وهل تشترك معي في هواياتي واهتماماتي؟ من يدريني؟ قد أكون حدثتها أو استمعت إليها عند ذهابي إلى السوق آخر مرة.. إنها تبتسم محيية إياي، فمن تراها تكون؟ ولكن ما بالي وماذا جرى لى؟ حتى المقربين مني لم يعودوا بمنأى عن تفاقم حالتي، التي كثيرا ما بررتها بضغط الأعباء على وتراكمها لم أعرف للوهلة الأولى مديري في العمل، فقد ناله مع زوجته نصيب من نكراني.. لم يقولا شيئا، ربما لم يحظا نسياني.

تذكرتهما بعد لحظة فتلعثمت وسال عرك الخجل مني، ثم بادرتهما بالتحية.. السكرتيرة تنادي على اسم امرأة، تنهض الزائرة بارتياح.

كمن يحقق انتصارا، المرأة الأنيقة تقوم، أتابعها وأحاول تذكر من تكون؟ تتصفح المرأة الجميلة إحدى المجلات النسائية، الطريقة المتبخترة في السير أعرفها أنا على يقين، وقد رأيت تلك الابتسامة، ولكن ما حسبي؟ كثيرا ما أصادف أشخاصا في الطريق وأجد وجوههم مألوفة، وأشعر أنني أعرفهم وأبدأ بسؤال نفسي عمن يكونون، ولا أهتدي إلى الجواب إلا بعد أن يبتعدوا عني.

الوقت يمر بتثاقل وبطء، الطبيب بارع يضع يده على موضع الداء، ولكن كيف يمكنه تشخيص الدواء إن تعددت مواضع الألم.

يقرع الباب، يدخل رجل جاوز الخمسين، وخطه المشيب عركه الدهر بنابه، أنا متيقنة أني أعرفه ولكن كيف؟ يقترب الزائر بأدب جم وابتسامة تزيل تجاعيد وجهه المتغضن، يجيبني الرجل، يستفسر عن الزوج والأولاد، أجيبه بكلام عام، ولكن هل أسأله عن الزوجة والأولاد كما فعل هو أم أكتفي بالابتسام؟ هل هو متزوج؟ أله أولاد؟ كم عددهم؟ يخبرني الرجل أن سميرة تسأل عني وهي تشتاق إلى رؤيتى، فمن تكون سميرة هذه؟ أقرر أنني سأخبره أنني أشتاق إليها أكثر ما تشتاق إلي، ولكن من يدريني أن الرجل يعرفني حقا ألا يحتمل أنه يشبه وهو يعني امرأة أخرى؟ هل أحاول أن أستفسر منه عمن يكون؟ ومن سميرة هذه؟

ينقذني من حيرتي والورطة التي تكتنفني أن السكرتيرة تنادي على اسم آخر، يبتسم الرجل ويجلس بعيدا عني لعله أدرك أخيرا أنني لا أعرف عن عائلتهم الموقرة شيئا، وأنني أعاني من متاعب نفسية قد تكون أكثر مما يعانيه هو، أتظاهر بقراءة موضوع في إحدى المجلات، والحير تتضاعف في نفسي يبتسم لي أحدهم، أشعر أنه قد حان دوري للاستفسار عن العائلة وعن صحة الأولاد، يبدو الاستغراب واضحا على محيا الرجل وما أن أحاول الإجابة، تنادي السكرتيرة على اسمى، أتنفس الصعداء، أدخل مهرولة كعادتى.

الطاعون

الجدار عال، أحاول أن أصل إلى منتصفه لأكتب قصائدي، أقف على رؤوس أصابعي وأحاول ولكن عبثا، فإن قامتي تقصر عن إرادتي، وأفشل في القيام بما أزمع القيام به، أراك واقفا، البر يرسل أشعتها الفضية وينير طريقى، أكرر المحاولة وأتعثر، وأنت تبتسم.

– تسلقي كتفي، واكتبي ما تريدين.

يطربني اقتراحك، أنقذه في هذه اللحظة، ينتفض جسدي، أشعر بسيول تجتاحني.

تسير معي وتبادلني الحديث وكأني أعرفك منذ الأزل.

مصافحتك عناق، تطير بي إلى أجواء من البهجة، حديثك نهر يجرفني، يبدد ترددي ويمنحني جرأة كنت أظنها بعيدة عني.

– أريد طفلا جميلا منك.

تتوهج عيناك ويسعد فؤادي فأخبأك بين النهدين، وتولع سيجارتك وتطفئ لهيب الولاعة فمن يطفىء لهيبي أسير نشوي؟ وكأن العالم في قبضتي، يعزفان نشيدا قدسيا، يتناجيان، يترنمان، تبتسم أنت، أضمك بين ضلوعى، وإنني مأخوذة

بمزاياك، أتحدث وأتحدث، عسى أن أنقل إليك حياتي كلها في لحظتنا هذه، أي قدرة لديك على الإنصات، لم ألف هذه الطاقة، عيناك ماستان تهدهدان الطفلة التي في داخلي، عرفتك منذ البداية، وكبر ولعي بشخصك إني متيمة بك يا رفيقي، نقرر أن نحيا معا في بيت صغير يضمنا ويحمي عواطفنا وآمالنا.

– سيداتي، آنساتى، سادتي، نخبركم بأن موجة عاتية من الطاعون قادمة إلي ربوعنا، نهيب بكم أن تكونوا على استعداد لصدها.

تكبر ابتسامتك، تخبرني أننا لو كنا معا ومع الآخرين الطبيبين لن يتمكن الطاعون من اجتياح أرضنا.

يدانا متعانقتان ونحن نرسم طريقنا وماذا نشاء في مستقبل حياتنا، وأنت تحب الناس، تعشقهم تود أن تساعدهم، تحل عنهم أعباءهم تدلل لهم العقبات، وأنا الهشة أتقوي بك، ثباتك يشد أزري.

– أيها المواطنون، الطاعون قريب منا، تأهبوا لمقاومته.

تسرع خطواتنا، نهرع لمقابلة أصدقائنا وإخواننا ونحثهم على مقارعة العدو.

أتشبث بك أستمد قوتي منك أتغلب على ضعفي، أواجه خنوعي، وأنت تقرأ حالما أفك في شيء حتى تسارع إلي إجابتى، تكبر أنت وتكبر، وتغدو نخلة باسقة تعانق السماء، جدورك عميقة في تربتي وأنا سعفة أرتوي بمائك.

فجأة تغيب يخبو الضوء من حياتي ويتضاءل، وأنا أتعثر في طريقي، فقد غاب مصدر قوتي وطال غيابك، وأنا أتقهقر، وكأني لم أعد المرأة التي تعرفها فكم تغيرنا الطريق وتعرجاتها.

– أيها الأصدقاء، دخل الطاعون إلى بيوتنا، وربح الجولة الأولى، كونوا مهيئين لدحره.

– أشل أنا، قدماي تخونانني وإرادتي عاجزة، ولساني يأبى التحرك، فمتى تعود ياحبيبى؟

– الطاعون في كل مكان، أفرد جناحية، وحط في ربوعنا، فأين المفر يا أصدقائى؟

ساق للبيع

شتى أنواع البضائع تتكدس هنا بكل ما خطر في بالك ولم يخطر، سوق عجيبة زاخرة بما تشاء، هذا فرع للبضائع الأجنبية المستوردة، حقائب وأحذية وعطور فواحة، وأدوات زينة قادرة على إعادة الشباب الهارب.

فرع آخر للملابس الجميلة الأنيقة لربات الحسن والجمال والدلال، فرع ثالث للأثاث المنزلي، أنت لم تعتادِ ارتياد هذه الأسواق، فما شأنك بها؟؟ روادها لا يثيرون فيك الاهتمام، وراتبك الهزيل مدة خمسة أعوام كاملة يكاد لا يسد حاجة واحدة من هذا السوق العجيب، فلماذا تتعبين نفسك بهذه الأمور؟ نأيت بعقلك عنها وتجاوزتها، لم تد تسبب لك ألما، ولم تكترثي يوما بمثل هذه التطلعات.

وصفوا لك السوق بدقة، أخبروك أنك ستجدين ضالتك هنا، وجميع ما تحلمين به، وما لا تجرؤين على الاقتراب منه حتى بالأحلام.. الأعضاء تباع هنا، ولست بحاجة إلى شراء.. لديك كل شيء، أنت كاملة في جميع المقاييس كما زعم الكثيرون، كنت جميلة يوما، وددت العشق والهيام كأبناء جيلك وناضلت من أجل تحقيق ما ترتئين وحاولت أن تحققي ما تريدين. جئت من مكان ناء، وأنت تطمحين أن تنجحي في مسعاك. قطعت المسافات الطويلة، تحملين شيئا عزيزا

عليك، أثيرا على قلبك. ترددت كثيرا في القدوم. فكرت طويلا، كيف يمكنك التخلي عن شيء غال قد عشقته دوما، ولكن لابد من التضحية للضرورات أحكام كما يقولون، أخبرك مرارا أنه لم يعد بحاجة إلى هذا الشيء، وحاولت إقناعه بأن الأمور الأساسية في الحياة ليس من المناسب الاستغناء عنها، أخبرته أنكما لا يمكن أن تتخليا عن الهواء أو ضوء الشمس أو الدفء، ولا يمكن أن تعيشا بعيدا عن الحب، حاولت أن تقنعيه أنه بمقدروكما أن تعيشا أياما بلا طعام أو شراب .. وباستطاعتكما أن تحافظا على حياتكما موفوري الصحة إذا عشتما عشرة أعوام بدون أن تشتريا ملابس جديدة، اقتنع بوجهة نظرك وأحجم عن بيع أشيائه أول الأمر، لكن المرض داهمه بإصرار منقطع النظير، فكر كثيرا وشاركته أنت بالتفكير. سوف تتنازلان عن بعض الأشياء التي لم تعد ضرورية هذه الأيام. كنتما سعيدين متآزرين ومازلتما على تلك الحال، والأحوال تتبدل ولا تبقى على منوالها المعهود، فقد عمله وبقيت محافظة على عملك، بترت ساقه في حرب مجنونة عبثية لا طائل من ورائها، بقيت ساق واحدة. أحب الرسم منذ الطفولة وعاد إليه بعد أن ألم به بتر الساق، أضنانا الحادث وقض مضجعنا، وقررنا أن البكاء والنحيب لن يعيد الساق المبتور فكففنا دموعنا، إيراده من عمله ذاك مع راتبي يكفي للقيام بتلبية أعباء المنزل، ومتطلبات الحياة المتجددة باستمرار، صحته ساءت، نصحه الطبيب أن يجري بعض الفحوصات ودخلنا يكاد لا يسد حاجاتكما الأساسية، اقترح أن يبيع ساقه السليمة ليسدد أجور الفحوص الطبية، لم توافقيه في مستهل الأمر، دونكما تتناسل باطراد، أفزعك أن تددي من وقف بجانبكما يعين في أوقات الشدة يتضاءل عددهم شيئا فشيئا، الناس كلهم يحيون حالتك، جميعهم ولو فقراء

يكافحون من أجل القيام بأودهم، وافقته على مضض، وحملت أمرك إلى هذا السوق، أعضاء مختلفة، عيون، آذان قلوب، أذرع سيقان، أمعاء، أجهزة بكاملها تباع هنا. لمحت ساقها لها عين صفات ساقك التي تحملين.

– أخى، لطفا، بكم تبيعون هذه الساق؟

– ثلاثة آلاف دولار.

هللت للجواب، ثمن البيع ثلاثة آلاف، وثمن الشراء ألفان حتما أنت الرابحة.

– بكم تشتري ساقا مثل هذه؟

– الساق التي تبيعين ما نوعيتها؟

يرعبك الجواب، فماذا يعني؟ تقمعين مخاوفك وتعاودين الحديث

– الساق التي أرغب في بيعها تشبه هذه تماما.

– أساق رجل هي أم ساق لإمرأة؟

– ساق رجل.

– نحن نفضل سيقان النساء، اذهبي وهاتي لي ساق امرأة وسأعطيك ما تشائين.

أي وقاحة هذه؟ ماذا يعني هذا الرجل المتصابي؟

– لكن الساق المعروضة أمامي رجالية.

– اسمعيني أيتها المرأة، ساق رجل غني لا تشبه ساقا لفقير عضه الجوع بنابه ونخر عظامه وعانى من فقر الدم، ولين العظام، ساق شجاعة تختلف عن ساق جبانة، السيقان أنواع الساق الوسيمة أو القبيحة، الساق الرقيقة أو السمينة.

– الساق التي أحملها لرجل حبيب وسيم شجاع حنون.

– أين يقطن؟

– وما شأن هذا بحديثا؟

– الساق في المناطق الغنية أفضل مما في الفقيرة، وأنت امرأة عانت كثيرا وحبيبك الذي تبيعين ساقه نخزته آلام الضعف والهزال. الفحوصات اللازمة تكلف ألفي دولار، هذا الرجل لن تتمكن من الاتفاق معها، هل تجرب بائعا آخر؟ يقرأ البائع أفكارها:

– أنا البائع الوحيد للسيقان هنا.

– ومن أين تأتي بها؟

– من جهات متعددة، الساق التي أعجبتك لرجل منعم، لم تنخر عظامه الأحزان ولم تهزمه الهموم، رجل عاقل حكيم، يدرك أنه لا جدوى من مقارعة الرياح، كم عمرك يا امرأة؟

– اربعون عاما.

– يبدو أنك تجاوزت الخمسين، لنعد لحديثنا، أعطيني ساقك بخمسمائة دولار.

ماذا تفعل بهذا المبلغ الضئيل؟ هي بحاجة إلى ألفي دولار فهل تستدين وديونها تراكم فمن يمكنه الوفاء بها؟

– اسمعيني يا صديقتي، هناك بائع للسيقان الرخيصة، بعيد من هنا، اذهبي إليه وحاولي إقناعه وإن فشلت عودي.

– هل استقل الحافلة أم أستخدم قدمي؟

– ما نوعية قدميك؟ هيا أسرعي، أوشك الوقت على الإغلاق.

تسيرين خطوات، الوقت ليس في صالحك، تعودين إلى الرجل.

– أيمكن أن ترفع الثمن؟

– سوف أخفضه، قدمك ليست طازجة، سأعطيك مائتي دولار، ولكن انتظري سأرى الساق أولا؟

يفتح الرجل اللفافة، يمسك الساق، تظهر على محياه علامات الاشمئزاز، يناولك الساق مسرعا.

– خذى، امسكى، ساقك قد تفسخ، وسوف تهاجمني الأمراض، ادفعي لي تعويضا، سوف أجري الفحوصات الطبية للاطمئنان على صحتى، أنتم الملوثون ابتعدوا عن الأصحاء وليأخذكم الجحيم.

مجلس العزاء

الملاية مستمرة في قراءتها، والنساء جالسات، يستمعن إلى ما تقوله بانتباه، يرددن اللازمة التي تذكرها، بعد بيتين أو ثلاثة، من القصائد التي تنشدها، أثناء ترداد الكلمات وتكرارها، تربت كل واحدة منهن على صدرها برقة ولطف.

الحضور كثيف، والقاعة متراصة الصفوف، بعضهن يجلسن على الأرض، وأنت قد ساعدوك على المجيء، المكان الجديد، لم تريه من قبل، لكنهن يعرفنك تمام المعرفة، وتطلب كل واحدة منهن أن تحدثيها بما حصل، وما زال المشهد أمامك بوضوح وكأنه حدث منذ ساعة، أنت تتحدثين وتتحدثين، وفي كل مرة يطرح عليك سؤال وتجيبين، تدركين أنك قد سهوت عن أمور عديدة، فتعودين إلى ذكرها.

لم تكونين تعتقدين أو يخطر في بالك أنك يمكن أن تمري بهذه الحوادث المتتالية المتعاقبة، وأنت العجوز المتعبة، التي أثقلتها السنون، ونالت من احتمالها الأيام، وأكل الدهر عليها وشرب، وتركها الأصحاب والخلان، وابتعد الأولاد والبنات، كل ذهب إلى بيته المستقل، وبقيت وحيدة مع بعلك العجوز الذي

أمضى تسعين عاما في الكدح والجهاد، وما زالت روحه شابة أنت فخورة اليوم، تشعرين أنك زينب.

الملاية مازالت تلقي قصيدتها، والنساء جالسات، يستمعن بإعجاب واهتمام، يكررن اللازمة، بعد كل بيتين من القصيدة، ويربتن، مع ترداد الكلمات على صدورهن برقة وحنان، طلبت منه ألا يذهب إلى العاصمة فالجو ملغم هناك.

اتفق أن يخرج مع أصحابه وأصدقائه في مظاهرة صاخبة احتجاجا على الظلم، سمعك واهتم بما تقولين، لكنه ذكرك بحقيقة كدت تناسينها مع استفحال المتاعب.

– الساكت عن الحق شيطان أخرس.

أعجبك طوال حياتك، كان نعم الرفيقن قويا وشجاعا وحنونا، لم يسمعك كلمة قد تؤذي شعورك، أو قد تفهمين منها أن اهتمامه بك قد خف أو اعتراه بعض البرود، كنت على يقين تام أن ودكما وتفاهمكما بقيا على حرارتهما طيلة هذا العمر المديد.

الملاية مازالت تلقي قصيدتها، النساء جالسات يستمعن إلى ما تقوله عن التضحية والفداء والجود بالنفس والروح، عندما غادركما الأولاد وبقيتما وحيدين، أشفقت على كبركما وضعفكما ابنتكما الكبرى وبقيت معكما في المنزل، مع زوجها تحاول أن تخفف من شعوركما بالوحدة وافتراق الأعزة والأحباب، لم تكوني تشعرين أنه قد كبر وناله بعض العجز كباقي عباد الله، بقي دائما متوثبا مؤمنا متحملا صابرا مصليان يفيق في الفجر، يذهب إلى المسجد ليصلي، عاش قدوة أخاذة لك ولك من عرفه.

الملاية منهمكة في تلاوة قصيدتها، النساء جالسات يستمعن إلى الكلمات الجميلة العذبة، يرددن اللازمة بين كل بيتين أو ثلاثة، ويربتن مع الترديد برقة وعطف وحنو على صدورهن.

مدرعة كبيرة وقفت أمام الباب، نزل منها أفرادا صغار بعمر أحفادك، أحاطوا بالمنزل من جميع الجهات، قطعوا أسلاك الهاتف، أخذوا جميع من كان في المجلس، مستمعا إلى بعض أمور الدين، جميع الرجال، وكانوا بمختلف الأعمار.

الملاية مازالت تلقي قصيدتها، النساء يقفن، تتسارع ايديهن، يضربن على صدورهن، تزايلهن الرهقة، يسيطر عليهن العنف والتوتر.

تقيد الأيدي تعصب العيون، يؤخذ الجميع، يغدو المنزل خاليا، أنت المريضة المتعبة التي أرهقتها السنون وابتعاد الأحباب وسيطرة القساة على مقاليد الأمور، كيف تأتيك القوة؟ من أين جاءتك هذه الشجاعة؟ تتسلقين السلم تصلين السطح، تتسلقين الجدار الواطئ الفاصل بين سطحكم وسطح الجيران، ثم الجدار الآخر والثالث، والرابع، والخامس، تستقبلك الجارة السادسة بترحاب.

الملاية مازالت تردد كلمات قصيدها الحماسية، والنساء يرددن بعض الكلمات بعدها، يضربن على صدروهن بعنف وشدة.

يعذب الرجال، يضرب زوجك بقسوة، يجرح في مواضع من جسده ويوضع في الجروح مواد تزيد الألم، يصمد زوجك، أليس مؤمنا؟ والصبر والاحتمال من شمائل المؤمنين من أي ملة كانوا، يطلبون منه أن يرحل وسوف يمنحونه ما يشاء.

النساء تطلق شعورهن، يعملن دائرة كبيرة، يجلن، يحركن رؤوسهن، يضربن صدروهن بعنف، الصراخ يشتد، يتعالى والملاية مستمرة في الإلقاء، الدائرة تدور، الجميع يصرخ.

– لن أغادر إلى أي مكان، هذا بلدى، أريد أن أموت فيه.

يخبؤنك في غرفة بعيدة، مليئة بأثاث لم يعد صالحا للاستعمال، وأنت لا تودين أن تكوني أقل شجاعة منه وأدنى موقفا، فأنت أيضا قوية وذات مواقف ومبادئ.

الصراخ يعلو ويشتد، الدائرة تدور، ضربات عنيفة على الصدور، الشعور تتطاير، والرؤوس تعلو وتهبط.

جاءت الأحكام، ومن القصر، زوجك لم يحاكمه أحد، أصدروا حكمهم عليه بالإعدام، وهو ذو التسعين ربيعا، مع ستة شبان آخرين، وأصدروا حكم المؤبد على الرجال الآخرين، بمن فيهم زوج ابنتك الضيفة، أما ابنتك فقد أصيبت بالشلل، ما هي التهمة؟ لم يقولوا ولم يسألهم أحد ومن يمكنه السؤال ونحن نعيش ليلا بهيما، ينفذ الحكم بسرعة، ولا أحد في بلادي يعلن الحداد وإلا يلقي المصير نفسه.

الصدور تضرب بعنف، تلطم الوجوه، تدور الرؤوس، تعلو وتهبط، والأصوات تصرخ.

إحدى صديقاتك تمنحك جوازها.

– انفذي بجلدك يا أمي، وسوف أتدبر نفسي.

الصراخ يتعالى، البكاء يهدر، الضربات تتوالى عنيفة قوية مؤلمة على الصدور، الجميع فقد حبيبا زوجا أو أخا أو قريبا أثيرا أو صديقا مقربا، لست الوحيدة.

الملاية تنهي إنشادها، الدموع تتلألأ على الوجوه، وأنت غادرت أرضك، فيعودك شعور بالغربة، مازلت تحاولين قمعه، فليس بإمكانك أن تفعلي شيئا، أنت تودين أن تكوني قربه، ولكن أين جثمانه وهم لم يسلموه لأحد، فمن يدري لعلهم رموه في دجلة العزيز، أو وضعوه مع الأعزاء الآخرين، أو إنهم جربوا معه تلك المحاليل والسوائل التي يزيلون فيها كل الآثار.

وليمة

الوضع رهيب، والقسوة بالغة الفظاظة، لقد أرعبني وقلب قناعاتي، لم أكن أحسب أن الإنسان المخلوق العاطفي الرقيق، يمكن أن يقدم، وبملء إرادته على عمل تقشعر لهوله الأبدان، ومن قام بهذا العمل الرديء والآثم؟ إنه ولدي، الابن العاق الذي ربيته يوما بعد يوم، سهرت على راحته ورعايته ساعة بعد ساعة، قام هذا الابن بطعني وبأعصاب باردة، وبدون أي شعور بالتردد.

هالني ما أقدم عليه ولدي ذاك، لم أمنحه العلم فحسب، بل غرست في نفسه المبادئ السامية والعواطف المرهفة، لكن الذي أثار فزعي، وولد حزنا بالغا في نفسي أن المشاعر الرقيقة التي غرستها في نفس ابني لم تثمر، وأن الشجرة التي تعهدتها بالعناية والسقاية والاهتمام، قد ماتت قبل أن تورق أغصانها، أحاول أن أخبئ حزني وأستر لوعتي وخيبة أملي، وأنا أجد ولدي العائد توا من السفر يقدم على قتل حبيباتي، حمائم جميلة رقيقة، زاهية الألوان، كانت تملأ على المنزل سرورا وتبدد شعوري بالوحشة، وتقلل من إحساسي بالوحدة، وذلك الهاجس الذي ما انفك يلازمني بأنني مخلوق غير مرغوب فيه، قد أنهكته السنون وابتعد عنه

الأصحاب والأحباب، وفارقته شريكة العمر إلى الرفيق الأعلى، فلم يبال ولده الوحيد بآلامه وأوجاعه ولم يكلف نفسه أن يطمئن على أحواله أو يستفسر عن أموره، كل ما كان يطلبه أن تصل إليه الحوالة المالية مطلع كل شهر، ولم يكن يدري كيف أتمكن من تهيئة المال المطلوب، وأنا المتقاعد العجوز العاطل عن العمل، وما شأنه هو؟ كل همه الحصول على المال لا غير، لقد فرحت بقدومه، وحدثت نفسي بأن متاعبي سوف تزول وأن شعوري المؤلم بالوحدة والغربة لن يستمر إلى الأبد، وسأودعه إلى غير رجعة. ما إن وصل ولدي إلى بيتي وقبل أن يريح نفسه من عناء السفر كما يقولون أعجب بحماماتي.

– ما أجمل هذه الحمامات يا أبي، إنها بمنتهى الروعة، ألوانها بديعة بين الأبيض والسماوي والرمادي.

– إنهن صديقاتي يا بني.

– كيف استطعت أن تجمع هذا العدد، وبمثل هذا الجمال؟

حدثت ولدي عن بناتي، وأنني أجد سعادتي قربهن، وأنهن متلهفات على صحبتي، لا يظهرن مللا من وجودي مهما استطال هذا الوجود، لقد اعتدن على الرحيب برؤيتي في الصباح، ما إن أغادر سريري حتى أهرع إلى الفناء وأجدهن أمامي مرحبات باشات يرفرفن فرحا وطربا، ويعزفن بأجنحتهن سرورا ويطرن قريبا مني ابتهاجا، وأنا مستبشر أشكر الله على نعمه الجلية وأسأله أن يديمها علّي، فأنا وحيد في هذه الدنيا وحماماتي مصدر هنائي وسر بهجتي.

عندما وصل ولدي وسألني عنهن، أطلت الحديث عن مزاياهن، وعن الخصائص التي تتمتع بها كل واحدة منهن، وكنت أحسب أن ولدي سيشاركني اهتمامى، ولكن الذي أثار نقمتي وبدد فحري أنه أراد أن يقتلهن وأمامى.

– لكنها قسوة يا بني، كيف تذبح هذه الطيور الوديعة من أجل أن تقيم وليمة لأصدقائك؟ يمكنك أن تشتري اللحم من كل الأنواع.

– إنني أريد هذه الحمامات، لقد وعدت أصدقائي أن أقدم لهم حماما محشوا في وجبة الغداء.

اقترحت على ابني أن يشتري ما شاء من الحمام وأن يذبحه لوجبة المدعوين، لكنه أبي إلا حماماتي.

لم أكن أظن أن الولد إذا كبر وشب وبلغ مبلغ الرجال يقضي على حياة أبيه، ويئد شعوره بالسعادة، وكثيرا ما حدثني بعضهم عن عقوق الأبناء، فلم يكن بمقدوري أن أحسب أن ولدي سيكون ضمن هؤلاء الأبناء العاقين، كنت أظن أنه سيرحم عجزي ويعطف على شيخوختي، فيبقى على حماماتي، فهن أنسي وفرحي.

أخذ يمسك الواحدة منهن وهي وادعة مستسلمة تتكئ على كتفي، أوتقف على رأسي أو تلقط الحب من يدي ويربها بيديه، وهي تنظر إلي ّ بعتب تود أن تصرخ وتعلن عن احتجاجها وثورتها، لكن يدي ولدي قويتان الدموع تسيل من عيون حماماتى، وأنا واقف لا أستطيعه أن أقدم لها نجدتي وأنقذها من براثن هذا الابن القاسي ذي القلب المتحجر.. والدموع كانت تسير مني مدرارا على وجنتي، وتصل إلى فمي، كنت أحاول جاهدا ألا يرى ولدي دموعي، فمن يدريني؟ قد

يتهمني بالجبن والخنوع، لم أستطع أن أنظر إلي حماماتي الحبيبات وهن يذبحن، بل كنت أبعد عيني إلى الجهة الأخرى، وبقيت مسلوب الإرادة أمني النفس ألا يبيد ولدي كل حماماتي، حتى أتى على آخر حمامة، فقمت بمغادرة الفناء إلى غرفة نومى، بقيت حزينا أفكر بالمصير المأساوي لحماماتي وكيف أنني مخلوق ضعيف لم يستطع دفاعا عن بناته الضعيفات، وأنني غير جدير بالحياة، فكم تكلمت عن الشجاعة وعن حرية تقرير المصير، وإذا بي اكتشف أنني رعديد وجبان، وأنني عاجز عن حماية من يأويه منزلى، وبقيت أشعر بالضعف والهوان، حتى قررت أن أبدأ من جديد وأشتري زوجا من الحمام، آتي به إلى بيتى، ليشاركني حياتي ويبدد شعوري بالوحدة.

أعياد الربيع

هلت تباشير الربيع بوضوح هذا العام، اعتدل الجو، أخذت الشمس تبعث بأشعتها الحانية الرقيقة، فيذوب ما حل في القلوب من ثلج، وما أصاب الأفئدة من جليد، الأشجار تعود إلى الحياة، يزول عنها الذبول، تكتسي الأوراق خضرة بهيجة، وتتلألأ ألوان الربيع جمالا وروعة.

أنت فرحة على غير العادة، آليت على نفسك أن تطردي سموم الكآبة من داخل روحك الوثابة المتعطشة إلى النور والفرح، تذهبين وتعودين، علك تنجزين ما أزمعت القيام به، والظروف الاستثنائية ما فتأت تمسك بخناقك، حتى الرغيف لم يعد من اليسير الحصول عليه، في ظل هذه الأوضاع التي خلقوها حولك وأحاطوك بها، وسجنوك داخلها واستطاعوا أن ينجحوا بعض الوقت في واد الفرحة وتبديد الأحلام، قررت الاحتفال بمقدم الربيع، كما كنت تفعلين في الأيام الماضيات، عائلتك الكبيرة، فارقك أفرادها، مرغمين واحدا بعد الآخر، زوجك استقر في مكان بعدين لم تكحلي العين برؤيته منذ أعوام طوال، يتصل بك هاتفيا بغياب الرقيب، في فترات متباعدة، يطمئن على أحوالك، وأحوال ابنتك الوحيدة التي بقيت معك، ويخبرك بأنباء أولادك وبناتك المنتشرين في بقاع مختلفة من أنحاء العالم.

جهزت الجرار الفخارية الاثنتي عشرة، بعدد أفراد أسرتك السعيدة المتآلفة، وضعت في فوهتها وعلى قطع من الململ، كمية من القمح، رويتها بالماء، وطنت النفس على رعايتها وسقايتها، حتى يخرج الزرع وينمو، ثم يصبح نبتا بديعا، يزين بيتك ويجمله في العيد الذي قررت الاحتفال به.

سنين طويلة وأنت لم تقربي هذا الاحتفال البهيج، حيث تجتمع الأسرة المتعاونة حول مائدة كبيرة تضيء بهجتها الشموع، وسبع ألوان من الأطعمة تبدأ بالحرف سين، كان حبيبك، رفيق حياتك، يوفر لك ما تشائين من صنوف الطعام وألوانها.

ويهيئ ما يلزم هذا اليوم من مواد تجعل ظلال المحبة والوئام يسودان في بيتك السعيد.

بقيت وحيدة تعانين آلام الفراق، تشعرين أنك محرومة مما يجعل للحياة معنى، من الحب والحنان، لم تفكري هذه الفترة بإحياء هذه العادة الجميلة، فالكل قد غادر، فلمن تهيئين ولمن تحتفلين؟ وحياتك باردة، لادفء فيها، واليوم تشعرين أن الاحتفال بمناسبة العيد، وإشعال الشموع بعدد أفراد الأسرة يخفف عنك لوعة الفراق، ويبعث في نفسك شعورا بالتفاؤل، بأن من أرغم على البعد بجسده مازال معك بإحساسه ومشاعره، وإن آلاف الأميال عاجزة من تغيير العواطف وتبديدها.

اتصل بك زوجك معلنا أخبار عن الأولاد والبنات كنت تنتظرين سماعها، زال قلقك عن الأولاد البيعيدين، أنت مطمئنة عليهم، هم يعيشون في بلاد تعرف شيئا عن حقوق الإنسان، ابنتك الوحيدة تأخرت في العودة إلى المنزل وقلبك

يشتعل، ماذا ألم بها؟ المكاره تطاردك هنا، لم تألفي الشعور بالأمان، يمضك الفؤاد ويوجعك، تقمعين مخاوفك، تتنفسين بعمق، أنت وحيدة، لم تذووقي طعم البهجة منذ أمد طويل، وابنتك ماذا حل بها؟ قد وعدتك أن تحصل على بعض المواد الغذئية اللازمة للاحتفال، السوق شحيح، وإذا طلبت شيئا يرغمونك على شراء مادة أخرى لست بحاجة إليها.

قائمة المواد التي تريدينها طويلة وابنتك قد لا تستطيع الوفاء بوعدها، قالت لك الجارة أم عماد.

– يصعب الحصول على المواد اللازمة الآن، لنتعاون معا اذهبي إلى أحد الأسواق وأنا أذهب إلى آخر وسوف نقتسم ما نحصل عليه.

تتحركين بهدوء، تخين أن يشعر أحدهم أنك تحتفلين بعيد منع الاحتفال به منذ دهر والناس في حداد مستمر، جارتك أم عماد تثقين بها، هي أخت لك وصديقة، تتبادلان الحديث والإنصات، تحيا نفس ظروفك وإن كت أوفر حظا منها فقد غادرها الجميع واتخذت منك أختا بديلة عن الغائبين.

الهاتف يرن، علها ابنتك.

– حصلت على الشموع، والسمسم، أصل بعد قليل.

يفرحك النبأ، بقيت أنواع ستة عليك توفيرها، السمسم من الحاجات النادر توفره في ظل موجات الحرمان المتلاحقة التي حلت في البلاد.

السلق من الأنواع الصعب توفرها، حتى أنك لم تعودي إلى صنع الدولمة، تشح هذه المادة باستمرار، أم عماد أخبرتك أن إحدى معارفه في المناطق المحظوظة تستطيع أن تمنحها باقة من السلق تقتسمانها بينكما.

أنت الآن آمنة قليلا، لم يعد ابن أبيك يكرر الاتصال طالبا أن تتبرئي من شريك حياتك لأنه خائن غادر الوطن، قد أوقفته عند حده، فقاطعك وحرمك من ميراث أبيك، ليذهب مع نقوده إلى الجحيم، فزوجك، حبيبك والد أبنائك رؤوف بك ولم يقاطعك.

السمك من أين لك الحصول عليه؟ أنت لم تتذوقيه منذ سنين ابنتك أخبرتك أن صديقتها سها، قد تمنحها سمكة، بعد أن علمت أن هذا الصنف يكاد يكون مجهولا في المنطقة التي تقطنين.

عليك الآن أن تبدئي بصنع الأصناف التي تتوفر لديك موادها الأولية، لتهيئي السكر لصنع السمسمية، تصل ابنتك بعد قليل، ولكن ما ستفعلين إذا كان السمسم بحاجة إلى عملية تنقية طويلة؟ اطمئني، السوق الذي ذهبت إليه ابنتك في منطقة راقية ولابد أن يكون السمسم منقى، اصنعي الساهون الآن.

توفرت لديك أربع مواد تبدأ بحرف السين، بقيت ثلاث، كيف يمكنك توفيرها.

دقات قليلة على الباب تعلمك أن صديقتك أم عماد، تنتظر إذنا بالدخول، فقد عرفت طريقة طرقها على الباب.

– وصلك السلق وقليل من السماق.

كم مادة لديك الآن؟ يتعبك العد وتنسين بعض الأسماء، أم عماد تبتسم، ورقات من السبانخ، تحتفظ بها في الثلاجة، بحالة جيدة لم يصبها التلف بسبب انقطاع تيار الكهرباء.

والبيض؟ كيف تتمكنين من الحصول عليه؟ وهو يشكل أزمة لا حل لها، تطلبين اثنتي عشرة بيضة، تخرجين إلى أحد الأسواق الشعبية، لم تعتادي الذهاب إليها، أيقنت ألا شيء فيها يبعث على الرضا، تعثرين لدى بائع عجوز، على ضالتك، وترين على رف مهجور كمية من السيلان تفي بالحاجة.

سبع مواد تبدأ بالحرف سين متوفرة لديك، ما عليك إلا البدء بالعمل، طلب منك ابن أبيك أن تتبرئي من شريك حياتك وأن يقوم هو بالإنفاق عليك، ظنا منه أن ما يبتغيه الإنسان نقود فقط أبي له أن يعرف أنك تريدين الحب والحنان، النقود أمراها ميسور، فمازلت في أوج عطائك، صحتك وماكينة الخياطة التي عدت إليها ما فتئت تحنو عليك وتعاملك برقة وحنان تسعين إليهما.

وجدت ما تطلبينه من البيض في ثلاثة حوانيت اشتريت اثنتي عشرة بيضة وعدت وأنت تشعرين بالانتصار.

كل المصاعب أنت قادرة على تذليلها في هذه المناسبة السعيدة، كنت أيام شبابك تخرجين إلى البساتين، مع الرفيقات، تذهبين إلى أحد الغدران وتتناولين الخس والمكسرات، أنت لا تستطيعين اليوم الخروج، هم يتهمون كل ثلاثة يتمشون مع بعضهم بإثارة الشغب وإفساد الجماهير، وقلب قناعتها، ياليتك قادرة على الإتيان بما يتهمونك به، السنون تغير الإنسان وتهد قوته، وتجعله مستكينا.

تأخذين البيض تغسلينه، اثنتا عشرة بيضة بعدد أفراد أسرتك، تلونين البيض، تكتبين على كل واحدة اسم أحد أفراد الأسرة، تصبح لديك باقة من البيض تضحك بسعادة، تتلألأ ألوانها بحبور وسرور، وتعلن أن الظلم لن يتمكن من النيل من تعاون الأسر وتآزرها.

تصل ابنتك قد تهيأ لك كل شيء، أصبحت المائدة عامرة ملأى، تولعين شموعك الاثنتي عشرة، إنها بحجم واحد، ألوانها مختلفة بين الأبيض والأحمر والأخضر، تتمنين أن تنتهي شمعتك من الاشتعال أن تلقي حتفها قبل الشموع الأخرى، لا تريدين أن تفقدي أحدهم، تخشين الفراق، تتوقعين حضورهم لم يتمكن من قهرك الظلام المهيمن

الزرع ينمو يخضر، اثنتا عشرة جرة، تضعينها على المائدة مع الأصناف السبعة السينية، تضعين البيض الملون، الشموع تزهو بألوانها الجميلة تتوهج، تبعث في نفسك الاطمئنان بأن الغد لابد آت.

أنت جالسة مع ابنتك الوحيدة، ترفلين بلباسك الزاهي الجميل، تنظرين إلي الشموع المتوهجة وأنت تناشدينها أن تستمر على التوهج، علك تحققين ما ترنو إليه نفسك، تنتظرين هاتفا من البعيد القريب ليزف لك النبأ السعيد أن البعد لم يقض على ما يكنه لك من حنين.

حفلة عيد ميلاد

هيأت لك المنزل، نظفته وعطرته وغيرت ترتيب أثاثه، اشتريت زهورا جميلة وضعتها في الشرفة وقرب مائدة الطعام، أبدلت تنسيق الصور المعلقة على الجدران، لوحات طبيعية وأخرى عائلية لعائلتي وعائلتك، المكتبة قد امتلأت رفوفها.

نحن معا نعشق القراءة وكنت أتابع ما يجد من كتب فأسرع إلى اقتنائه علك تأتي وتحدثني عنه أتيت بالمسجل ومعه الأشرطة للأغاني التي تود سماعها، نحن متفقان في هذه الأمور يا حبيبي، تفضل سماع أم كلثوم وفيروز والأغاني القديمة.

هيأت لك الطعام الذي تحبه، ارتديت لك الملابس التي أرجو أن تراني جميلة بها، وضعت العطر الذي مدحته آخر مرة، وجلست أنتظر، صنعت الكيكة التي تحبها ووضعت عليها الشموع الصغيرة بعدد سنين عمرنا، أنت تكبرني بيومين ميلادك يوم الثلاثين في آذار من كل عام جهزت ما تحبه من أشياء أشعلت الشموع وأطفأت الضوء، وبقيت أنتظر، كل عام في مثل هذه الليلة تأتيني يا حبيبي، تصلني في التاسعة وتغادر في السابعة صباحا، وأنا سعيدة جدا بهذا الحضور أعد الأيام وأحصي الساعات، وأمني النفس بأن قمر الحادي والثلاثين من آذار

سوف يهل على بعد انتظار وتشوق، وأن سعادتي بلقياك ستحييني وتمدني بقوة كبيرة تجعلني قادرة على انتظارك عاما كاملا آخر.

الشموع تصغر شيئا فشيئا وأنا أنتظر.. مازال الأمل يستمر في داخلي وأنا في كامل زينتي أجدني متألقة والبسمة مغروسة في شراييني أزغرد، بعد قليل سيفتح بابي ويطل على حبيبي الذي لم ينئ عني فأنت ما دمت معي تشاركني أفكاري وتملأ على حياتي بهجة وحبورا مع أي أراك سويعات كل عام.

الشموع تصغر، يتضاءل نورها فهل تأخرت؟ وما فتئ الأمل يعشعش في داخلي وشجرته عالية مورقة – وأنا أنتظر– انتهت أغاني أم كلثوم – تبعتها أغاني فيروز، لابد أنك حاضر، تخبو شموعي وتنطفئ وأستبدلها بأخرى جديدة والأمل مغروس في دمي شيء ما قد أخرك يا حبيبي.. حتما سأراك هذه الليلة، فدائما يصدق وعدك لي وتأتى.. عشر سنوات اعتدت مجيئك وبيدك ورودي، وأنت مفتوح الذراعين متوهج العينين يطربني حضورك وأنسى ما عانيت من بعاد وغربة طيلة السنة الفارطة الشموع الجديدة يتضاءل ضوؤها ويخبو فهل استبدلها بأخرى؟

أسمع رنين الهاتف فيبهجني سماعه رب عارض أخرك عني، وأنت تتصل لتوضح لي.

– ألو سحر – مبروك عليك العيد بالسعادة الدائمة، إنه جارنا يا حبيبي، كنت أرجو أن تحضر لأحدثك عنه فهو ما أنفك يرحب برؤيتي ويتمنى لي السعادة حالما يقابلني، ابتسامة تأسرني اليوم أرسل لي زهورا جميلة بمناسبة عيدا، فما الذي أخرك

عني؟ الشموع يتضاءل نورها، والطعام قد برد بعد أن سخنته عدة مرات وشعور قوي يتملكني بأن عطري قد تبدد فأسارع لتجديده.

ما الذي منعك من الوصول أمر قاهر حتما؟ وإلا فأنت حريص وأكثر مني على إحياء هذه الليلة.

فهل أنت مشغول؟ وقد تكون بعيدا والهاتف ليس معك وإلا لكنت اتصلت بي، فأنت تعرفني ياحبيبي وتدرك كم أنا متلهفة على لقياك ومتشوقة لسماعك؟

آه.. لقد وصلت.. اسمع صوت الباب يقرع.. لماذا تطرقه والمفتاح معك؟ .. إنه جارنا..

– مازلت وحدك، أنا وحدي أيضا سنتبادل الحديث ونحن ننتظر قدوم المسافر العزيز..

الغربة فظيعة وأمر قاس أن يحيا الإنسان بمفرده.. تحدثنا عن مسائل عديدة وأنا أنظر إلى الشموع وأراها منهزمة توشك أن تودع فأسارع إلى شموع أخرى جديدة.

جارنا متحدث عذب يا حبيبي وهو قاض قدير، حدثني عن قانون جديد سيتم العمل به بعد أيام، مفاده أن العضو البشري الذي لا يستعمله صاحبه مدة يومين كاملين يبتر، فالعين التي لا تتمع بالجمال مدة يومين بكاملها تقلع من حصاحبها وتهدى إلى آخر يعشق الجمال، والأذن التي لا تطرب بسماع الألحان توهب إلى إنسان متيم بالإنصات إلى الأصوات الجميلة.. والقدم التي لا يستعذب صاحبها التمشي تعطى إلى آخر يجد لذته في السير للمسافات الطويلة.. لقد

وجدت القانون منطقيا ويتماشى مع الطبيعة، لكن الذي أثار دهشتي قول جارنا أن القلب الذي يهجره العشق مدة يومين يستأصل بعملية جراحية ويهدى إلى آخر قد سكنه العشق وتملكه وعاشب به وله.. فما رأيك يا حبيبي؟

المؤلفة

- صبيحة شبر.
- كاتبة من العراق.
- ليسانس في اللغة العربية وآدابها في كلية الآداب - جامعة بغداد.
- نشرت مقالات وبحوثا في الجرائد العراقية منذ عام ١٩٦٠.
- نشرت مجموعة قصص عنوانها (التمثال) صدرت عن مطبعة الرسالة في الكويت عام ١٩٧٦.
- مستمرة في الكتابة ونشر البحوث والقصص القصيرة.
- نشرت مقالات وقصصا قصيرة باسم مستعار، نورا محمد في الصحافة الكويتية بين عامي ١٩٨٠- ١٩٨٦.
- تركت وطنها العراق عام ١٩٧٩ وعملت في الكويت كأستاذة في إحدى المدارس الثانوية.
- استقرت في المغرب منذ عام ١٩٨٦، وتعمل حاليا أستاذة اللغة العربية في المدرسة العراقية - الرباط.

العنوان: ٣٠ زنقة أسفي منزل ١٢ الرباط ١٠٠٠٠ المملكة المغربية.

الهاتف: ٠٠٢١٢٦٧٤٤٢٣٦١

Sabiha_kadhum@hotmail.com

فهرس

عن المجموعة والقاصة ٥
إليك عني همومي..... ٧
المهجرة..... ١٣
سأعود بعد ساعة..... ١٩
امرأة سيئة السمعة..... ٢٥
الوشاية..... ٣٣
المطاردة..... ٣٩
البناية ٤٥
الانتظار..... ٥١
الطاعون ٥٧
ساق للبيع..... ٦٣
مجلس العزاء..... ٧١
وليمة ٧٩
أعياد الربيع ٨٥
حفلة عيد الميلاد..... ٩٣
المؤلفة..... ٩٩